**الأكاذيب الـمقررة في الحضارة المعاصرة..**

**أحمد بابانا العلوي**

من الأمور اللافتة للنظر، في الحضارة المادية السائدة، أنها تتسم بالتدجيل أي التمويه، والكذب، في كل شيء..، والتدليس على الناس، وذلك بتسمية الأشياء بغير أسمائها وتمويه الحقائق بإطلاق الأسماء البراقة التي تجلب الانظار و تستهوي البصائر وتسحر القلوب ،وتهتر العقول..فيتها فت عليها الناس كتهافت الفراش على النار.

ويترتب عن هذا كله ما نراه، من كثرة الاختلاف، والتناقض بين الظاهر والباطن (وبين العلم والعمل)

وهذا شأن الشعارات، والفلسفات، التي حلت محل الأديان وسحرت النفوس والعقول: (مثل الحرية والاشتراكية، والديمقراطية ورفع مستوى المعيشة، والرفاهية، وحقوق الإنسان، والفنون الجملية، والدستور...) إلى غير ذلك، من الشعارات، والكلمات التي تمت إحاطتهما بهالة من التقديس والتمجيد وحل. حبها واحترامها في قرارة النفوس ...، وأصبح الشك في قدسيتها أو النقاش حول حقيقة أمرها، مدعاة للإنكار، دون ما تمحيص، في تحديد مجال نجاحها أو إخفاقها، في العمل والتطبيق أو مقارنتها، المقارنة الصحيحة المحايدة، من أجل التعرف على ما كسبته الإنسانية أو خسرته من سلطان هذه الشعارات البراقة الفاتنة.

ولا شك بأن هذه الحضارة المادية بكل ما تملكه من علم وفن..، بلغت ذروتها، بما احتوت عليه من قوة التدمير، والإفساد والتدجيل .

ومن سماتها البارزة شغفها بالمادة وحرصها على تزينها، والمبالغة في إجلالها، وتفخيم شأنها... ، ونفي ما وراءها من مثل وقيم.

والاقتصار على التنافس في السيطرة على أسبابها وطاقاتها وذخائرها .

وقد نهجت فلسفة الحضارة المادية وآدابها، كل صور الإطراء والتعظيم لأصحاب رؤوس الأموال، وأصحاب النفوذ المادي، والسيطرة السياسية والاقتصادية، ومن سمات هذه الحضارة المادية الإسراف في كل شيء : (في النظريات السياسية، والاقتصادية) والإسراف في الإنتاج والاستهلاك والهرولة وراء طلب الملذات واللهو والتسلية.و حالات ونزوات ،لا رابط بينها ..

الأمر الذي سيؤدى حتما إلى التخمة المادية وما يترتب عنها من ضجر فكري، وقلق نفسي..متكرر،فالانسان الذي يعيش حياة مادية صرفة ، يصاب بحالة من الانفصام ..

ومن يسبر غور هذا الأمر العميق سوف يلحظ أن الحضارة ستبلغ نهايتها، وتسقط كما سقطت حضارة اليونان وحضارة الرومان...

ومما تجدر الإشارة إليه ما ذكره الفيلسوف ماكس نوردو (1923-1879) في كتابه " الأكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة".

بأن النظر إلى هذه المدنية التي شعارها التشاؤم والأكاذيب، والجشع، لابد أن تتوارى، وتخلفها مدنية أخرى غايتها الحق والسعادة ...، ويومئذ تصبح الإنسانية حقيقة واقعة، في ظل الإخاء الدائم وفي أفق من السلام، والصدق والمعرفة والصلاح، والحرية..

كان الفيلسوف يأمل في مجيء عصر تنمحي فيه العيوب والأباطيل، والأمراض الشائعة في حضارة العصر..

إنه حلم و أمل يراود الأجيال جيلا بعد جيل.

وغني عن البيان القول بأن العوامل المتحكمة، في ظاهرة الاستمرار، والتغيير، تعود إلى جدلية الجغرافية والتاريخ باعتبارها عوامل حاكمة في التطور الإنساني مهما تغيرت العصور.

ان تحديات كل عصر تكمن في إدارة الموارد الجغرافية، والتاريخية والثقافية، بما يحقق أهداف مشروعية العصر بقيمه وموازينه. وفق الشروط التي تتأسس عليها الحضارات ، من منطلق ان الحضارة رؤية شاملة للكون و منهاج حياة ،فاذا أ ختلت القيم أختلت تبعا لذلك موازين العمران البشري ،و من ثمة سقط الانسان في حالة من التوحش والانفصام ..وينتج مما سلف ان من خطايا الانسانية العامة ،تلقف الكلام واطلاقه على عواهنه ، دون تعمق او تدقيق أو اعتبار للقاعدة الآوصو لية التي تقول بان الحكم على الشئ فرع من تصوره..، و يرى الاستاذ علال الفاسي بهذا الخصوص ، أن للكلمات معانيها التي أعطيت لها بالوضع ،وتحقيق هذه المعاني ضروري لمعرفة الموقف الذي يتخذ منها.ويضيف بأنه لا يصح في ميدان الاجتماع وقيادة الشعوب ،أن يكتفى بمفهوم الاشارة ،فالدعوة لفكرة ما ينبغي أن تقوم على التفهم العميق لتلك الفكرة،وما يكتنفها من جوانب، وينبني عليها من اثار ..يجب ان نحقق اذن مدلول الكلمات التي نستعملها،لكي يكون مدلول الاشياء واضحا في أذهاننا ،قبل ان نبلقه للاخرين ..،لآن ادراك الآمور على حقيقتها ،خير ضمان لنجاح الفكرة ،التي نؤمن بها،ونعمل على انجازها ،وخير سبيل لقيام التجاوب المطلوب،بين الشعب ،وبين قادة الرأي والفكر ..( البينة العدد الثالث يوليو 1962) .ان خير وسيلة لبناء المعرفة وامتلاكها ،تكمن فيما عبر عنه الآمام الغزالي في قوله :" من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر يبقى في العمى،والضلال ."(ميزان العمل ص409).انه المنهج الذي يحرر الفكر من الاوهام والمعتقدات الزائفة والخاطئة ،وذلك بنقد الافكار نقدا يميز صحيحها ، من باطلها ..،لآن ضبط التصورات والمفاهيم اللغوية ،كفيل بحل مشاكل المصطلح اللغوي ،وتبديد الغموض الذي يغلف التصورات الذهنية ..